المحاضرة الثالثة: البعد القومي في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

يعد الشعر العربي وسيلة تعبير قوية عن الهوية والوجدان الجمعي للأمة، وقد لعب البعد القومي فيه دورا محوريا في تعزيز الانتماء الوطني والدفاع عن القيم العربية الأصيلة. ويتميز الشعر العربي الحديث والمعاصر بالجمع بين الوجدانيات الشخصية والهموم القومية، خاصة في فترات النضال والتحرر الوطني.

مفهوم البعد القومي في الشعر

البعد القومي في الشعر العربي الحديث والمعاصر هو تجسيد عميق للوحدة العربية والانتماء المشترك عبر تغني الشعراء بالقضايا العربية المصيرية، الدعوة للتحرر وتوحيد الصفوف، تمجيد التاريخ والأبطال، والتعبير عن الآلام المشتركة مثل الاستعمار والنكبة، ليتحول الشعر لأداة فعالة في تشكيل الوعي القومي وترسيخ الهوية، من خلال موضوعات كالقدس، الوحدة، المقاومة، وتوظيف رموز وأساليب تعزز الشعور بالانتماء إلى أمة واحدة.

فالبعد القومي في الشعر يعني الاهتمام بالقضايا العامة للأمة، والتعبير عن همومها، وتاريخها، ومجدها، ومستقبلها. ويتجلى هذا البعد في عدة محاور:

الهوية والانتماء :الحفاظ على اللغة العربية والثقافة العربية.
القومية والدفاع عن الأرض :مقاومة الاحتلال والدعوة إلى الوحدة والتحرر.
القيم والمثل العليا :الحرية، الكرامة، الشجاعة، العدل.
القومية العربية: انطلاقا مما سبق يمكن القول أن العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة وهي: أنها تعيش على بقعة جغرافية ممتدة بين منطقتين مائيتين هما الخليج العربي من الشـــرق والمحيط الأطلســـي من الغرب، والحدود الســـياســـية التي نراها اليوم هي من وضـــع القوى الاستعمارية، وهي بالتالي حدود طارئة، كما أن الشعوب التي تعيش على هذه البقعة الممتدة تتشارك لغة واحدة رغم تنوع لهجاتها وروابط تاريخية وثيقة وعادات وتقاليد متقاربة. ومنه يرى

دعاة القومية أنه يجب أن يكون للعرب دولة واحدة، وحكومة واحدة، تقوم على أســاس الفكر القومي.

أسباب ظهور الاتجاه القومي العربي:

-القرن التاسع عشر كان عصر تفتح القوميات وتحققها في كثير من الدول الأوروبية فكان من الطبيعي أن تســري الأفكار القومية إلى بلاد العرب من عدة طرق(البعثات الثقافية، العلاقات التجارية، النفوذ الاستعماري، مدارس الإرساليات..)

-عجز الدولة العثمانية عن تحقيق الإصــلاح المناسـب للفســاد والظلم الذي اسـتشـرى في أرجائها، إضــافة إلى انتشــار نزعة تركية عنصــرية حاولت إذابة العرب في بوتقتها(النزعة الطورانية، جمعية تركيا الفتاة العنصرية) ومناوأة كل ما هو عربي.

-انتشــار أفكار وحركات تدعو للحرية والديمقراطية والمســاواة والعدل في الوطن العربي مع رغبة الطبقة المثقفة في الوطن العربي في إقامة دولة تستند إلى دستور عادل وبرلمان يمثل الشعب وإصلاح المجتمع.

-تسرب الأفكار الاشتراكية إلى بعض الأوساط العربية وكانت الصحف والمجلات والكتب التي تتناول هذه الأفكار تمزجها بلمحة قومية كما هو الحال في كتابات بطرس البســتاني وفرح أنطون وفارس الشدياق وغيرهم

- الصبغة العلمانية التي صبغت كثيرا من كتابات القوميين مع عدم معاداة الدين إنما الدعوة إلى أن يكون أســاس الوحدة اللغة العربية التي توحد كافة الشــعوب العربية واحترام الإســلام دين الأغلبية ومراعاة حرية الأقليات الدينية الأخرى في ممارسة شعائرها.

مظاهر البعد القومي:

-**الاحتفاء بالوحدة العربية** :دعوة صريحة لتوحيد الأمة العربية وتحقيق كيان موحد، والتأكيد على أن مصير الأقطار العربية واحد.

-**مجابهة الاستعمار والمحتل** :وصف معاناة الشعوب العربية تحت الاحتلال، وتخليد ذكرى المقاومين، والدعوة للثورة ضد الظلم، وهو ما ظهر جلياً في الشعر الجزائري مثلا.

-**التغني بالتاريخ المشترك** :استلهام أمجاد الماضي العريق، وتصوير الشخصيات التاريخية كرموز للقوة والفخر، مثل شعر أحمد شوقي في إبراز الحضارة المصرية القديمة كجزء من التراث العربي.

-**تجسيد الهم العربي المشترك** :التعبير عن مآسي الأمة ككل (كالنكبة الفلسطينية)، حيث يشعر الشاعر العربي بألم الوطن العربي بأكمله وكأنه وطنه .

أبرز شعراء القومية العربية في نهاية القرن19 ومطلع ال20

انتشرت الأفكار القومية لدى جماعة من شعراء هذه الحقبة من بينهم: إبراهيم اليازجي(لبنان)، عبد المسيح الأنطاكي(سوريا)، عبد المحسن الكاظمي(العراق)، قسطاسي الحمصي(سوريا)، خليل مطران(لبنان)، فؤاد الخطيب(لبنان)، جميل صدقي الزهاوي(العراق)، فارس وبشارة الخوري(سوريا/ لبنان)، أنيس المقدسي(لبنان) وغيرهم. وقد عانى هؤلاء الشعراء من ظلم الأتراك لأقطارهم وإهمالهم لشؤون العرب ومقاومة كل حركة إصلاحية أو تحررية وقد حز في نفوس هؤلاء الهوان والتخلف الذي أصاب بلاد العرب فأخذوا يناضلون في سبيل ازدهار الأمة العربية منطلقين من المبادئ القومية وانعكس ذلك في أشعارهم إذ نجد صدى واسعا للأحداث والأحوال التي أحاطت بهم من تخلف وظلم.. فقد كان التاريخ العربي المزهر حاديهم إلى حث الأمة على الاستيقاظ من سباتها ومن هؤلاء إبراهيم اليازجي وهو يخاطب العرب بقوله:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات القنا سلب

أما أنيس المقدســـي فقد قال بعد إعلان الدســـتور العثماني المخيب للآمال عام 1910 واختلاف النخب العربية حول الرد الأنسب:

كفوا البكاء على الطُّلول الهُمَّد ليس القضاء على البلاد بمعتدي

حتام نربع فوق آثار عـــفت والدهر يدعونا إلى نعم الـــــغد

...

متدافعين مع الزمان تجددا أن الزمان مطية المـــــــتجدد

هيا نجدد للبلاد شبـــابها متكاتفين على الزمان الأنـــكد

إن فرق الإيمان بين جموعنا فلساننا العربي خير مـــــوحد

فالشــاعر ينتقد الاســتســلام الســلبي وإلقاء اللوم على الأقدار لأن ســبب الركود هو الكســل والخمول وترك النضــال من أجل تحصــيل الحقوق والاكتفاء بالتغني بالماضــي الزاهر. كما اهتم المقدســي بالتنبيه إلى ضــرورة نبذ التفرق الديني والمذهبي وفي قصــيدة اليرموك يدعو المقدسي إلى استخلاص الدروس من التاريخ ونبذ اليأس إذ بإمكان العرب العودة إلى صدارة الحضارة من جديد:

بنو الصحراء هل يصغون أم هم على الفلوات قد باتوا نياما

ألا هبوا أحدثكم بمـــــــجد لكم غشي الجزيرة والشامـــا

إلى اليرموك إن تبغوا المعالي وفوق ضفافه فاجثوا احتراما

هنا الإسلام ضاء له حسام غداة استل خالد الحسامـــا

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى هب الشــريف حســين وأبناؤه للوقوف في وجه الدولة العثمانية وكان الحلفاء قد قطعوا له وعدا بمســـاعدته على إقامة دولة عربية تعيد للعرب أمجادهم فراح الشاعر القروي رشيد سليم يتغنى بهبة الشريف حسين قائلا:

عاد الرشيد وعاد باهر عصره سبحان من بعث الحسين لنشره

ما بين مكة والشام تنـــافس هذي بغوطتها وتلك بذكـــــره

ملك على الإسلام أبدى غيرة قرت بها عين الرسول بقبـــره

نصر المروءة فالمسيح وأحمد يتبادلان التهنئات بنصـــــره

لما رأى الدين الحنيف مهددا ورأى المهدد ممعنا في كفره

ورأى العروبة تستعين بربــها من جور طوران الغريب وغده

لبى فجرد سيفه من غمده بل قل فجرد عزمه من صبره

والمقدسي وغيره من شعراء القومية كانوا ينادون بنهضة العرب وتوحيدهم وجعل الخلافة فيهم لذلك فقصـيدة الزهاوي النائحة على جماعة من المناضـلين أعدمهم جمال باشـا في مسـتهل الحرب العالمية الأولى تصنف ضمن هذا التوجه القومي:

على كل عود صاحب وخليل وفي كل بيت رنة وعويـــل

وفي كل عين دمعة مهراقة وفي كل صدر حسرة وغليل

والذي كان يهم الزهاوي هو اتخاذ الشـهداء موضـوعا لقصـيدة قومية ليحرك ضـمير الأمة العربية فالدم المراق في بيروت ودمشق يعني كل عربي وهو حلقة من حلقات النضال العربي للتحرر من الظلم والاضطهاد. وعلى هذا النحو كان شعراء هذه الحقبة حاملين للواء النضال ضد الظلم والحرمان الذي وقع على الأمة العربية في أواخر الحقبة العثمانية.

الاتجاه القومي عقب الحرب العالمية الثانية:

كانت مرحلة الوعي القومي ما بعد الحرب العالمية الثانية1945 إلى غاية نكسـة 67 مرحلة مهمة من مراحل الوعي القومي العربي حيث بدأ الوعي القومي ينتقل من مجال الاجتهاد النظري والدعوة إلى القومية العربية إلى محاولة التجسيد العملي في شكل تجارب وحدوية وقد

كان هذا الانتقال من مجال النظرية إلى مجال التطبيق ضـروريا لتأكيد الافتراضـات النظرية وجعل الأيديولوجيات القومية حقيقة قائمة يعيشها الإنسان العربي.

وقد كانت القضـية الفلسـطينية من أهم القضـايا التي شـغلت الحس القومي العربي وجمعت شمله حول قضية محورية كانت ولا تزال أم القضايا العربية يقول السياب في قصيدة في يوم فلسطين(1948):

اليوم يحطم كل شعب ثائر سود القيود بضحكة استهزاء

والقدس ما للقدس يمشي فوقها صهيون بين الجمع والأشلاء

يا أخت يعرب لن تزالي حرة بين الدم المسفوك والأعداء

كما رافق الشـعر القومي النضـال العربي ضـد الاسـتعمار والعدوان الغربي على الأراضـي العربية كما هو الحال في العدوان الثلاثي على مصـر حيث يقول الشـاعر العراقي عبد الوهاب البياتي في قصيدة بور سعيد1956:

على رخام الدهر، بور سعيد

قصيدة مكتوبة بالدم والحديد

قصيدة عصماء

قصيدة حمراء

تنزف من حروفها الدماء

تطل من أبياتها بنادق الأنصار

وأعين الصغار

على جبين شمس بور سعيد

ومن القضـايا المحورية التي شـغلت شـعر القوميين العرب القضـية الجزائرية التي أسـالت من حبر الشعراء العرب الكثير كما سبق أن بينا في درس سابق.

الاتجاه الوطني في الشـــعر العربي:الحس الوطني شـــعور فطري طبيعي يربط كل إنســـان بالأرض التي ولد فيها وما يميزها من طبيعة و من يسـكنها من بشـر. إنه الشـعور الفطري بالانتماء وهو اتجاه ظهر في نفس الوقت والظروف التي نشـــأ فيها الاتجاه القومي بل إن التعارض بين الاتجاهين يكاد يكون ضـــئيلا إلا في حالات خاصـــة حيث تطغى النزعة القطرية(الوطنية) على أي انتماء أشمل(القومية).

وقد نشأت في البلاد العربية نزعات إقليمية كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والسورية في الشام والتونسية في تونس وكلها ترمي إلى استقلال وتميز الكيان الذي تنتمي إليه ليكون دولة عصرية ذات نظام ومؤسسات. وقد كانت النزعة الفرعونية سباقة إلى الظهور وقد رافقها شاعر كبير تغنى بها وبأمجادها وهو الشاعر احمد شوقي في عدد من قصائده منها: كبار الحوادث في وادي النيل، على سفح الأهرام، أبو الهول، توت عنخ أمون. أما سائر النزعات الوطنية الإقليمية فكانت تظهر في قصـــائد المهجريين الذين راحوا يحنون إلى ربوع لبنان وســـوريا. أما بعد ظهور حركات التحرر في الأقطار العربية فنجد تنوعا أكبر في القصـــائد التي مجدت النضـال ضـد المحتل وتغنت بحب الوطن والتوق إلى تحرره واستقلاله في شـتى ربوع الوطن العربي.

يمكن في سياق الشعر الوطني أن نقتصـر على نموذج شوقي لسبقه وتغلل النزعة المحلية المتمثلة في الاعتزاز بالحضارة الفرعونية في شعره ومن ذلك قصيدة أبو الهول:

أبا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر

فيا لدة الدهر لا الدهر شب ولا أنت جاوزت حد الصـــــغر

فالشـاعر يتخذ من أبي الهول رمزا لعراقة الحضـارة المصـرية وشـموخها رغم تقادم العصـور فهو رمز الأبدية والبقاء والقوة والعزة ويستمر الشـاعر عقب تغنيه بأبي الهول في سرد تاريخ

مصـر وحلقاته المتعاقبة وصـولا إلى الفتح الإسـلامي ليختم القصـيدة بنشـيد وطني يدعو إلى النهوض وصنع واقع مجيد على غرار الماضي الذي تغنى به الشاعر.